

ظاهرة الالتزام في الأدب المسرحي-قراءة في الحدود والمفاهيم-

The phenomenon of commitment in literature Theatrical -a reading of boundaries and concepts-

د- خليفة مامور^{*1}

1 جامعة الوادي، (الجزائر)، khalifa-mamour@univ-eloued.dz

تاريخ النشر: 2022/09/30

تاريخ المراجعة: 2022/09/14

تاريخ الإيداع: 2022/09/01

ملخص:

إن للأدب وظيفة فعالة وعظيمة، إذ يجب عليها أن تساهم في عملية التغيير التي يسعى إليها الإنسان المعاصر، كما يجب عليها أن تلتزم التزاما أميناً بكل القضايا والمشكلات التي يعاني منها، وتحاول أن تجد لها الحلول الفاعلة والمؤثرة التي تستطيع أن تسهم في القضاء على كل مظاهر البؤس والقهر والظلم والتخلف، وترسم الطريق الصحيح والمعالم الواضحة لمسيرة الإنسان نحو عدالة شاملة، ونحو تطور أعم وحرية حقيقية، وهذا الالتزام ليس بالضرورة التزاما بخط معين، وليس مفروضاً لا يحيد عنه الأديب وهو الذي تعددت أشكاله واختلفت مفاهيمه، بل يجب أن يكون هذا الالتزام في إطار الحرية المسؤولة التي تجعل الكرامة الإنسانية هدفها الأعلى، مستفيداً من الرؤى الجديدة والتجارب الواقعية الكثيرة، فالأدب لم يعد ذلك الترف الفكري الذي يغني آلام الذات وأفراحها، ويسترجع الذكريات والمواقف، بل تحول إلى عامل مهم في بناء الحياة والإنسان معا خاصة في مجال الإبداع المسرحي.

الكلمات المفتاحية: الأدب، الالتزام، الظواهر الإنسانية، الإدراك، الأدب المسرحي.

Abstract:

Literature has an effective and great function, as it must contribute to the process of change that contemporary man seeks, and it must adhere to an honest commitment to all the issues and problems that he suffers from, and try to find effective and effective solutions for them that can contribute to the elimination of all manifestations Misery, oppression, injustice and backwardness, and delineating the correct path and clear landmarks for the human journey towards comprehensive justice, and towards a more general development and real freedom. This commitment is not necessarily a commitment to a specific line, and it is not an imposed one that the writer does not deviate from, which has many forms and concepts. Intellectual luxury that enriches the self's pain and joys, recalls memories and situations, and has even turned into an important factor in building life and man together. Especially in the field of theatrical creativity

Key words: literature, Commitment, human phenomena, perception, Theatrical literature.

* المؤلف المراسل.

تقديم:

يلعب الأدب دورا كبيرا في حياة الناس في وقتنا الراهن خاصة المسرحي منه، حيث يعمل على طرح العديد من القضايا وعلى رأسها نجد قضية الالتزام حيث أنه بات المسلك الوحيد الذي يعرض قضايا المجتمعات والشعوب لذا نادى جل الأدباء والفنانين بضرورة الالتزام كل حسب موقفه، وقد أشار القرآن الكريم في غير موضع إلى هذا المعنى نحو قوله تعالى: (فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) الفرقان، الآية 77.

فالأديب إنسان يعيش ضمن مجموعة من البشر يتبادل معهم التأثير والتأثير ويشاركهم الهموم والتطلعات، فهو لا يعيش في فراغ زمني أو مكاني، ولكنه يعيش ضمن مجتمع حي متحرك يهدف إلى التطور والتقدم نحو الأفضل، كما يهدف إلى معالجة قضاياها الاجتماعية التي تقف عائقا في طريق هذا التحرك المستمر والمتجدد، فإذا كان الأدب تعبيرا عن الحياة وكشفا لها وتأثرا بواقعها المتغير المضطرب، وتأثيرا فيه فإن الأديب في هذه الحالة إنسان دائم الانفعال والتوتر وكثير المراجعة والتدقيق والتحقق، يحاول باستمرار أن يتجدد ويستكشف ويتطور وصولا إلى الواقع الأفضل والرؤية الصحيحة التي يتمناها، وهو الذي أنهكته الأحداث السياسية والخلافات المحلية والمعارك الجانبية، فضلا عن كثير المعوقات المؤثرة التي حاولت أن تكسر فيه عزيمة التطلع والتغير نحو الأفضل.

فلكل عصر ظروفه وبالتالي متطلباته، والأديب والشاعر باعتبارهما القلب النابض للمجتمع و أكثر المؤهلين للتعبير عن قضاياها وطموحاته، وأكثر المخولين معرفة ما يليق بها من إصلاحات حتى تحسن أوضاعها وتتقدم إلى الأمام من خلال التزام المبدع بكل هذه القضايا والظروف التي تنبجس من مجتمعه الذي ينتمي إليه، والذي دائما يحاول أن يستشرف مستقبله من خلال توظيف الفن لغايات اجتماعية وسياسية، وعليه ماذا نقصد بالالتزام في الأدب المسرحي؟ وهل الالتزام ضروري أم هو مهمة دخيلة على الأدب؟ وكيف نظر إليه النقاد في الساحتين النقديتين العربية والغربية؟

محاولين الوصول إلى: ماهية الالتزام في النقد العربي، ومدى فاعليته داخل النص الإبداعي المسرحي، وهو الذي يعمل على عدم تقييد العملية الإبداعية بل يطلقها نحو فضاء أوسع وأرحب، متعرفين كذلك على أهم أوجه الاختلاف بين النقاد حول مسألة الالتزام وحدودها المعرفية والمفاهيمية.

معتمدين على المنهج الوصفي، من خلال وصف ظاهرة الالتزام والوقوف عند أهم الآراء النقدية التي تناولتها بالدراسة والتحليل.

2. في ماهية الالتزام:**1.2 لغة:**

ورد في أساس البلاغة: "لزم: لزمه المال لزوما، وألزمته إياه ولزم غريمه لزم ولا تنتزع من لزمه حتى تنتزع الحق منه، وفلان ملزوم وأخذ يملطي فلانته حتى استوفيت حقي منه، وألزمته خصمي إذا حاججته، والترم الأمر وهذا ملزم الصقيل لخشبة التي يصقل عليها ومن المجاز التزمه: عانقه"¹.

وجاء في معجم الوسيط: "لزم الشيء لزوما وثبت ودام ولزم وكذا من كذا نشأ عنه وحصل منه، وألزم الشيء أثبته وأدامه، وألزم فلانا الشيء أوجبه عليه، ويقال اعتنقه التزم المال والعمل خصمي الحجة وغير ذلك ويقال: ألزمت خصمي حججته"²

فكلمة الالتزام كلمة قديمة في أصل اللغة وقد تبين طباقا لما جاء في لسان العرب أن الكلمة مشتقة من الفعل "لزم وهي من مادة الفعل الثلاثي وجاءت على وزن {فعل} بكسر العين، وقد أورد ابن منظور في لسان العرب بقوله: لزم الشيء يلزمه لزما ولزوما، ولازمة وملازمة ولزاما والتزمه وألزمه إياه فالتزمه ورجل لزمة يلزم الشيء فلا يفارقه، اللزام اللازمة للشيء والدوام عليه والالتزام: الاعتناق"³

حيث أصبحت أظهر معاني الالتزام في اللغة تأتي بمعنى "التعلق بالشيء والمداومة عليه وعدم مفارقتها، أما الالتزام فقد يكون فيه مداومة على شيء وعدم مفارقتها لكن يصعب في الغالب إكراه ولهذا يكون لدى الشخص الملزم تعلق بما ألزم به ولا رغبة فيه"⁴

2.2 اصطلاحا:

"إن فكرة الالتزام في الأدب فكرة حديثة وهي وليدة هذا العصر"⁵، وقد خصصها المعاصرون في استعمالهم الفنية والأدبية "حتى أصبحت مصطلحا من المصطلحات يعني المشاركة في حل مشكلاتهم حيث أخذوا يستعملون في اللفظ الأوربي (ENGAGEMENT) الذي يعني التعاهد والارتباط بعامة هذه القضايا الخاصة"⁶ إن الالتزام يعني الموقف الصلب المحدد والواضح الذي يقف الأدبي مما يجري حوله، "بحيث يدرك مسؤوليته اتجاه قضايا أمته إدراكا تاما ويعيش تجربة الجماهير العربية في تجربته من خلال المشاركة الفعالة في معارك نضالها والمعاناة الروحية والفكرية لمشكلاتها الكبرى ضمن إطار الوحدة والحرية والعدالة الاجتماعية"⁷ وقد ظهر الالتزام "نتيجة لاحتكاك الأدب بمشكلات الحياة التي يعيشها وإدراكه لخطورة الدور الذي يقوم به إزاء هذه المشكلات"⁸

لذلك يتأثر الأديب بالحياة الخارجية السائدة في بيئته القائمة في مجتمعه، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع والأدب حين يتأثر بالمجتمع فإنما يعكس فهمه على هذا المجتمع والأدب تصوير لهذا الفهم ونقل له"⁹ إذ الأدب الملتزم هو الذي يقف على مرتكزات ومنهجية واعية، الغاية منه حقيقة الرؤية الفكرية الخاصة ونظرتها إلى الإنسان وتقويمه نحو الكمال، ومداعبة الأحاسيس الصادقة بالكلمة المؤثرة، الأدب جدير باسمه هو ما كان مرآة لعصره ترجمانا لظروفه، فالأدب ليس بناء لغويا وحلي لفظية أو زخارف كلامية وصورا فنية جمالية فقط، بل هو تعبير عن أحاسيس مجتمعه لذا "كان ارتباطا الشعراء والكتاب بقضايا اجتماعية منبثقا من خلال وجدانهم وانصهارهم الذاتي في تفاعلات المجتمع، فالبعد عن طريق العرض التقريري انتهاز المناسبات للقول في حدود هذه المناسبة وإعطاء الظهر لها، والبعد عن التقرير والعرض المطلق فاقترب من التحديد والتعميق، هؤلاء الذين ساروا على طريق الالتزام... يؤمنون بأن المضمون هو الذي يبلور ويشكل المحتوى الأساسي للفن، ولا بد من معرفة ودراسة الواقع الموضوعي حتى يمكن إيضاح المضمون وتعميق الفكرة كلما ازدادت المعرفة بالعالم وانعكاس ذلك على خصوبة الفن وثراء العطاء الأدبي"¹⁰

والأدب الملتزم يحمل رسالة نبيلة يقدمها للمجتمع من خلال أدبه كون "الالتزام يجعل الأدب غريبا مرتبطا بالآخر منشغلا به، ينبض بهوموم وأحاسيسه ويعيشه أفراحه وأحزانه بدلا من انغلاقه على ذاته واجتراره مشاعر

فردية، وأنه الجانب الإيجابي في علاقة متبادلة بين الشاعر والمجتمع وهي ليست علاقة أخذ وعطاء ولا علاقة انصهار وذوبان وإنما علاقة تطابق"¹¹

والشعور الملتمزم هو ابن العقل والفكرة، "إذ مشكلات المبدع لا تنفصل عن مشكلات شعبه، فهما مرتبطان ولا يمكن الفصل بينهما فالتزامه بموقف فكري لا يضر ذاته في شيء، أو يناقص طبيعته بل هو على العكس يضمن له الفعالية والأهمية ويحقق له الوصف القديم أنه نبيّ قومه وطفلهم وخدامهم في آن واحد"¹²

لهذا ظهر مقياس الالتزام في الأدب "الذي يزن الأديب بمقدار تكييفه للمجتمع وموقفه من قضايا أمتة واحتماله لما ينبغي أن ينهض به من تبعات ومسؤوليات"¹³

وقد ورد في معجم مصطلحات الأدب "أن الالتزام هو اعتبار الكاتب فنه وسيلة لخدمة فكرة معينة عند الإنسان لا مجرد تسلية غرضها الوحيد المتعة والجمال"¹⁴

ويرى محمد زكي العشماوي أن المقصود بكلمة الالتزام هو "أن لا يصرف الشاعر التغني بالأمه وأفراحه الذاتية ضاربة عرض الحائط أو لاهيا عن المشاركة بالفكر أو الشعور في قضايا قومه الوطنية"¹⁵

فالإنسان بطبعه فيه نفور شديدة من التقصير ولإرغام ويظهر ذلك عند الأدباء وأهل الفنون إذا يعيدونها حجرا على المواهب ومما يؤكد هذا القول ما ذكره الخوارزمي في بعض رسائله التي تكشف عن الضيق في نفسه من القهر"¹⁶

3. الالتزام في الأدب-المسرحي:-

أصبح الالتزام ظاهرة معروفة وواسعة النطاق في شتى المجالات الشعرية والنقدية الحديثة والمعاصرة حيث أصبحت لا تخلو من هذا التيار فجاءت فكرة الالتزام في النقد القديم غير متكاملة على غرار عصرنا هذا التي اكتملت فيه نتيجة التطور الأدبي والفني، إذ يعد المسرح من بين أقدم الإبداعات الإنسانية التي لجأ إليها الإنسان منذ القدم، إذ تنطلق هذه الممارسة الإبداعية من التجربة الإنسانية، وما تحمله من متناقضات عدة، لهذا كان العمل المسرحي سباقا في رصد مختلف التجارب الحياتية والإحاطة بكل مشاكل الحياة، وتعامل معها من منظور أشمل وأعم، يستطيع نقل الواقع بطريقة مغايرة له، بحيث يجد فيه البشر أحلامهم وأمانهم التي لم تتحقق، ولما كان المسرح يهدف إلى الأفضل والأحسن، فإن تعامله مع الواقع كان تعاملنا نقديا يهدف إلى تقييم الواقع الإنساني، ومحاولة إعطاء ملاحظات أساسية عن سلوكه وتفكيره وفلسفته ومستوى وعيه.

نستطيع رصد الظواهر الفنية لمنحى الالتزام في الحركة الأدبية المتأثرة بالفكرة الالتزامية "فنقول: هذا هو التعبير عن قضايا العصر والمشاركة الوجدانية، الذي يمثل المرأة العاكسة لما وجد في أعماق المجتمع في قضاياها ومشكلاته"¹⁷

فلم تكن فلسفة الالتزام واضحة ومعروفة عند العرب القدامى إنما أخذت هذه الفلسفة تتضح في العصر الحديث ولم تنتشر انتشارا واسعا بين العرب إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

لكن الشعر العربي لم يخلو من مواقف الالتزام من حين إلى آخر عن قناعات أصحابها فكانت اتجاهات الشعراء الفكرية لم تقتصر على عصر واحد من العصور الأدبية القديمة عند العرب وإنما نجد الالتزام في تلك العصور جميعا وإنما تباين هذا الالتزام كمية ونوعا من القوة والصدق"¹⁸

فكثر الكلام بين أدباء "أوروبا" في العصر الحديث حول الأدب الحر والأدب الملتزم حتى كان المتتبع لهذه المواضيع يحسبها أنها جديدة والحقيقة هي أن الالتزام في الأدب والفن القديم أنهم ولدوا مقيدين فالشاعر قديما كان الملتزم بالدفاع عن قبيلته وإن المجتمع المتطور البالغ لدرجة من الرقي قد يظهر فيه الالتزام في الأدب والفكر حيث أنه أثر في نفوس الناس وهذا ما حدث عند ظهور الإسلام فقد كان حسان بن ثابت ينتصر لهذا الدين بشعره.

فالأدب الملتزم في البلاد الديمقراطية لا يعدو اليوم أن يكون في صورة مذاهب شخصية أمثال -سارتر-، فالالتزام عنده ليس دافع "الدولة" بل شخصه وحياته، وهذا مبدأ اعتناقه للأدب الملتزم. فإذا ذهبنا إلى العقلية الإنجليزية لا تطبق قيودها على الفكر والمتعة فنجد ظاهرة الالتزام قليلة في الأدب الإنجليزي المعاصر، "باعتبار أن الالتزام بالأغراض القومية والإصلاحية قد يكون من منفرات الأثر الأدبي إذا نقل إلى بيئة أخرى تشعر شعورا آخر"¹⁹

وأن الأديب الذي يشعر بإحساس بيئته ووطنه وجيله يحزنه على كل حال أن يرى الناس في بيئة أخرى تنصرف عن شعوره الإصلاحية إلى الأدب فمن واجب الأديب إذن هو أن يتوقع ذلك دون أن ينصرف عن جهاده، فالأدب الملتزم لا يلتزم غير بيئة واحدة فإذا اختلفت البيئة وتغيرت فإن الأديب يتحلل عندئذ من كل التزام.

كما أن طريق الحكم في المجتمع وعمق الإيمان عنده لها أقوى الآثار في ظهور الالتزام "وهذا ما حدث في مصر القديمة" ولنرجع إلى ما قاله العلامة "موريه" في كتابه "النبي والحضارة المصرية" فقد ذكر أن الفن والأدب والعلم أشياء كانت دائما في خدمة الدين والدولة وأن "مصر" القديمة ما عرفت إلا في النادر "ما يسمى الثقافة الخاصة والفن للفن والبحث العلمي المقصود لذاته والتفكير النظري وأن آثارها الكبرى بروحها الجماعي لا تحمل حتى اسم صانع بعينه وإنما كلها خاضعة لمذهب واحد"²⁰

أما سارتر فقد عرف الأدب الملتزم فقال: "مما لا ريب فيه أن الأثر المكتوب واقعة اجتماعية ولا بد أن يكون الكاتب مقتنعا به عميق اقتناع حتى قبل أن يتناول الحكم عليه بالفعل أن يشعر بمدى مسؤولياته وهو المسؤول عن كل شيء عن الحروب الخاسرة أو الرابحة عن التمرد والقمع إنه متواطئ مع المضطهدين إذا لم يكن الحليف الطبيعي للمضطهدين، ويشير سارتر إلى الدور الكبير الذي يلعبه الأدب في مصير المجتمع فالأدب مسؤول عن الحرية والاستعمار وعن التطور وكذلك التخلف.

فالأديب ابن بيئته والناطق باسمها وكلمته سلاحه فعلية تحديد الهدف جيدا وتصويبها عليه بدقة "فالكاتب بماهيته وسيط والتزامه هو التوسط"²¹

وهنا يبرز هدف الالتزام في جدية الكشف عن الواقع ومحاولة تغييره بما يتطابق مع الخير والحق والعدل عن طريق الكلمة التي تسري بين الناس فتفعل فيهم على نحو ما يقف الالتزام عند القول والتنظير فالفكر الملتزم في أساس حركة العالم الذي يدور حوله على قاعدة المشاركة العملية لا النظرية، إذ ليس الالتزام مجرد تأييد نظري للفكرة وإنما هو سعي لتحقيقها فليس الغاية أن تطلق الكلمات بغاية إطلاقها.

وظروفنا الاجتماعية الحالية الحافلة بالقلق والمليئة بالمشكلات تدعو بشدة إلى الأدب الملتزم ووضع بلادنا العربية وما آلت إليه من تشريد ومن تأمر الأعداء وتكالمهم عليها تدعو الكل إلى تجنيد الجهود للعمل على تحرير البلاد ورفع مستواها السياسي والاجتماعي والفكري.

وحتى يكون الأدب صادقا لابد أن يتكلم عن الواقع الذي يعيشه الأديب والظروف التي تحيط به وتؤثر على نفسه وعلى يراعه فتخرج حينئذ الكلمات النابضة بالصدق وتأخذ طريقها مباشرة إلى فكر القارئ ووجدانه. وعليه "فالأدب الملتزم هو سابق على محاولات المحدثين وقد وجدنا قديما الأدب يتجسد في مشاركة الأديب الناس في همومهم ومواقفهم الوطنية إلى حد إنكار النفس في سبيل ما يلتزم به الأديب شاعر أما نائرا وإطلاعنا على أدبنا القديم وشعرائه يعرفنا أنهم كانوا في العهود والعصور العربية وفي الجاهلية أصوات جماعتهم"²²

1.3 الالتزام بين رؤية الغرب وتأصيل العرب:

1.1.3 الالتزام عند الغرب:

كان أول ظهور لمصطلح الالتزام (ENGAAGER) في العشرينيات من القرن الماضي عند قيام الدولة الشيوعية فيما كان يعرف بالاتحاد السوفياتي وذلك نتيجة خطر الأدب وعظيمة سلطان الأدباء غير أن الالتزام خرج من أيدي هؤلاء القوم عن رسمه الحقيقي فقد تحول اسمه وصار إلزام وإلزام كما قلنا يختلف تماما عن الالتزام فهو يفرض عن الأديب ويتناقض مع الحرية حيث أصبح أصحاب الاتجاه الشيوعي يفرضون على الأدباء والشعراء خدمة مصالحهم "فالأديب حين يتأثر بالمجتمع إنما يعكس مفهومه عليه ويكون الأدب تصويرا لهذا الفهم، وإما أن يكون الأديب المرآة العاكسة لهذا المجتمع أو يراها المجتمع ذاته ليس في الأدب من شيء فيتخذ الأديب دائما لنفسه موقفا فكريا، فهو يعيش مجتمعه ولا ينتج أدبه إلا في حالة استقلال ذاته عن المجتمع ويكون له موقف فكري خاص به"²³

وظهر مصطلح "الالتزام عند الوجوديين أيضا لكن لم يكن انحرافه كما كان عند الشيوعيين فباعتراف أن الوجودية ليست مذهبا بل يقصد بها طائفة فكرية ونزعة معينة آمن بها العديد من الناس فروج لها مفكرون غربيون وكان من أبرزهم في فرنسا ومن بينهم سارتر وأندريه جيد وغيرهم فكان هؤلاء المفكرون أن اختيارهم للوجودية حر حيث وجدوا فيه الخلاص للإنسان والمجتمع عامة"²⁴

حيث يقول سارتر في هذا الصدد: "أنه لا يستطيع الكتابة دون جمهور والتي تكون كونه الظروف التاريخية ودون أسطورة معينة تتعلق إلى حد ما بطلبات هذا الجمهور، وكان سارتر هدفه ودفاعه هو أن الأدب لابد أن يحقق التزاما بوظيفة اجتماعية، وأن الالتزام في الوجود هو حقيقي ومقرون بالحرية الفردية وليس من دوافع خارجية"²⁵

وكانت الواقعية الاشتراكية تنادي بالالتزام وذلك لأهداف معينة وهي الطبقة العاملة والنضال في تحقيق الاشتراكية وكان قائدهما "ماياكوفسكي" الذي دعا إلى التزام الشاعر بالقضايا الاجتماعية وأن يكون وعيه عن المجتمع"²⁶

حيث جاءت الواقعية الاشتراكية والتي يعد الالتزام من أحد أعمدها الأساسية والذي ساهم في تطوير نضالات الإنسانية المقهورة، "فمن هذا التصور أصبحت الاشتراكية تتضح معالمها شيئا فشيئا متلاحمة مع الروح المادية لتكتشف للناس كيفية فهم التاريخ"²⁷

فالالتزام لم ينفصل عن الواقعة الاشتراكية فهو من "أهم قوانينها الأساسية الأيديولوجية والفنية المساهمة في تحرير الإنسان من صراع المجتمع والعصر ومن صدق الأديب الذي يكشف عن المشكلات الاجتماعية"²⁸

فالأدب الملتزم جاء كردة على أسطورة الفن للفن، كما جاء أيضا نتيجة الظروف التي عاشها العالم، فهو يولد من كيان المجتمع ويعبر عن ذاتيتهم حيث يقوم على تقديم حلول لقضايا الأمة وهمومها وذلك بالدفاع عنها. نفهم من هذا وذاك أن الأديب والفنان يتغذيان بالحرية، والحرية هي التي يلتزم بها الأديب تجاه عصره وقضايا وطنه معبرا بذلك عن كل همومه وآلامه التي لا تكاد تنقضي.

2.1.3 عند العرب:

يعتبر الالتزام مصطلحا حديثا لمدلول قديم حيث يعني المسؤولية والرعاية في تراثنا، يقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"

فهو شيء ضروري حتمته ظروف الحياة القاسية والصعبة وهذا ما جعل المفكرين على اختلاف اتجاهاتهم ونزاعاتهم الفكرية والعقدية يعطونه أهميته كبيرة وزائدة وهذا ما أدى بهم إلى كتابة الصفحات الطوال.

فالأدب الملتزم هو "الأدب الحق يعبر عن الآلام والآمال والطموحات للمجموعات المتوجه لها فهو يعتبر المرآة العاكسة التي تنعكس عليها صورة المجتمع بكل أبعاده الاجتماعية والثقافية والدينية"²⁹

فرسالة الأديب غالبا ما تتكيف بالظروف المحيطة بالمجتمع الذي ينتسب إليه ويعيش معه "لأن التزامه ليس أمر غامضا أو مختلفا حيث يقوم على قواعد تنطبق في جميع البلدان ويأخذها الأديب بنفس الطريقة، بل يعتبر أثرا من النشاط الاجتماعي للشعب عامة وللطبقة العاملة خاصة"³⁰

وكانت تختلف صورة الالتزام عند العرب قبل الإسلام في شكلها ومضمونها على باقي الالتزام لدى الأمم الأخرى حيث كان كل مجتمع ينتهي إلى قبيلة ما تقدم على مبادئ وقوانين فكان لكل قبيلة شعراؤها الذين يعتبرونهم سلاحهم من أي عدو خارجي عليهم أو إذا تعرضوا إلى هجاء وذم من طرف قبيلة أخرى إلا ويدافعون عن أنفسهم بشعرائهم وهذا ما جعلهم يقولون إن شعراء القبيلة هم لسانها المفتخر بأمجادها والهجاء لأعدائها.

فجاء فجر الإسلام الذي أحدث انقلابا واسعا في جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية "وكان أثر هذا الانقلاب أنه مس الحياة الأدبية بصفة عامة فظهرت من خلاله بوادر الشعر الإسلامي وهذا ما أوضح لرسولنا الكريم ﷺ أهمية الأدب عامة والشعر خاصة ودعا إلى الدفاع عن العقيدة الإسلامية لأنهم كانوا بين مؤيدين ومعارضين لفكرة الإسلام ومن الذين لبوا دعوة الرسول ﷺ من الشعراء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة الذين كانا رمزا ومثالا للدعوة الإسلامية وللشعر الإسلامي الملتزم"³¹

فمن القضايا التي التزم بها العرب منذ النصف الثاني من القرن العشرين إلى يومنا هذا هي: "قضية الحرية، والعدالة الاجتماعية والوحدة العربية وقضايا التحرر العالمية، وبذلك صارت مهمتهم الحقيقية هي: النقد والمعارضة والتنبؤ والعمل على تغيير المجتمع والعالم والتقدم بهما نحو الأفضل، لقد وعوا ظروف الوطن الاجتماعية والقومية والوطنية والمادية والمعنوية والسياسية وعيا تاما قائما على العلم والتأمل، ثم أخذوا على عاتقهم خدمتها والالتزام بها فكانت مواقفهم انتقادية في أحيان وثورية في أحيان أخرى، والأديب الذي التزم موقفا معينا فكافح الجوع والمرض والجهل لا يمكنه أن يحقق التزامه تحقيقا كاملا ما لم يخضع لقوانين العالم ويصطد بالأخطار الناجمة عن موقفه"³²

4. الالتزام في ميزان النقد:

تعد قضية الالتزام من أهم قضايا النقد الأدبي، حيث أصبحت مثارة للخلاف بين النقاد، فالالتزام يعني تقييد الأدباء في أعمالهم الفنية بمبادئ خاصة وأفكار معينة فإذا قيد نفسه بهذه المبادئ فهو الأديب الملتزم وإلا فهو غير ملتزم.

فإذا كان معناه: هو التزام الأديب بمسيرة وضع سائد في مجتمعه وتأييده لنظام مقرر على قومه، حيث يقول رجاء عيد في هذا الصدد: "الفنان حين يلتزم بموقف معين تجاه الأشياء ويعبر عنه لا يفقد ذلك شيئاً من نظارة الفن أو أهميته أو يقلل من تأثيره، فنحن نقوم بعملية تحليل لهذا العمل في لحظات تلقيح ونضجه داخل إطاره الثقافي أو الحضاري أو الاجتماعي"³³، "فلا بد من العودة إلى أجواء الالتزام حيث الشعر والأدب وما يترتب عليهما من دور قومي إنساني والشاعر ملتزم عالمه ولكنه لا يطرق الدرب الاعتيادي وإلا لما كان شاعراً، والالتزام لا يكون إلا من خلال المعاني وحيث تفتقد المعاني لا يتوفر أي التزام"³⁴

حيث تكون أهمية العنصر الفكري دون الإساءة إلى فهم ماهية الإبداع أو التقليل من شأنه ولا معنى للفصل بينه والفكر، حيث يقول عز الدين إسماعيل: "ليست هناك قيمة حقيقية لعمل فني لا تتمثل فيه علاقة تأثير بين شكله ومضمونه، فالموقف الأيديولوجي وحده لا يصنع العمل الفني وكذلك يفقد العمل الفني وزنه حينما يخلو من موقف، ثم ما هي طبيعة هذا الموقف، أو هو موقف بين الذات المنفردة والجماعة، إما أنها ذات تلتحم مع الجماعة وتتجاذب معها، فالجدلية بين الشكل والمضمون في العمل الفني هي صورة انعكاس لهذه الجدلية بين الذات المنفردة والجماعة"³⁵

فالشاعر مثلاً لغته مختلفة تماماً عن لغة النثر من قصة ومقالة ورواية ومسرحية فالخصوبة التي تتميز بها القصيدة عن غيرها من الفنون هي "أن الشعر لا بد أن يثير فنياً أحاسيس جمالية وانفعالات وجدانية، وإلا فقد صفته، ولتحقيق هذه الأهداف هناك عدة وسائل أو خصائص لا بد من توفيرها فيه: كالوجدان في مضمونه والصورة البيانية في تعبيره وموسيقى اللغة في وزنه"³⁶. فالشعر ليس مضمون فقط بل القياس بمدى تأثيره على القضايا والمعنى والأفكار فالشكل والمضمون وحدة لا سبيل لتجزئتهما فليس هناك مقياس محدد ومعيار ثابت نحكم به على هذه القصيدة أو تلك بأنها فن أو غير فن ولكل قصيدة معيارها وقانونها"³⁷

ويرى الدكتور إحسان عباس: "أن الشعر نوع من المعالجة الحقيقية بتنظيمها تنظيماً جديداً وسيظل الشعر من غرس حديقة الحياة، يجمع بين قصة المجتمع والتكامل الجمالي معاً، وإذا أهمل واحد منهما فقدنا ركناً هاماً من مقوماته ودواعيه"³⁸

ويرى الدكتور زكي نجيب محمود: "أن من غير الواقع أن نطالب الشعر بالخروج عن نفسه وبالتنكر لطبيعته يخدم شيئاً آخر سواه، وسيخدم بما يحقق رغباتنا وبالطريقة التي ترضي الفن، ألا وهي طريقة الإثارة والإيحاء"³⁹ كما يقول الدكتور غنيمي هلال: "إن وجود قيمة فنية مستقلة ليس معناه أن هذه القيمة غاية في ذاتها ولا ينبغي بسبب ذلك عزل التجربة الفنية عن القيمة الأخرى أو التهوين من شأن هذه القيم ولا بد من اعتبار التجربة في مكانتها بين التجارب الإنسانية الأخرى، والتجارب تستلزم ارتباطاً خاصاً بين عالم الشعر والعالم الخارجي"⁴⁰

4. خاتمة:

تعد ظاهرة الالتزام في الأدب المسرحي من إحدى أهم القضايا في النقد الأدبي، حيث يتناول فيها المبدع القضايا الاجتماعية والسياسية ومواقف مجتمعه ويعالجها مقترحا الحلول المناسبة أملاً في تطورها وترقيتها والتهوض بها

مستعملا لغة سليمة واضحة بعيدة عن البذاءة، فينتهج أعمالا فنية ومبادئ خاصة وأفكار معينة، فقد غيرت فكرة الالتزام مفهوم الأدب فأضفى على شعور الأديب إحساسا قويا بأهمية الكلمة ومدى مسؤوليتها، فيعيش تجربة الجماهير العربية من خلال مشاركته الفعالة في معارك نضالها والمعاناة الفكرية لمشكلاتها الكبرى التي يسعى الإنسان المعاصر إلى تغييرها. فكان (الالتزام) محطة جدل كبير لفترة طويلة كونها تمثل قضية نقدية ظهرت جراء الظلم والحروب وويلات الاستعمار، فقد ارتبطت كثيرا بالأدب إذ اختلف النقاد حول مفهوم الالتزام بين مؤيدين ومعارضين له، فمنهم من يرى فيه حرية الأدب حيث يسلط على المضمون دون الشكل، ومنهم من تبنى فكرة أن الالتزام في حد ذاته هو حرية، فكان هناك العديد من المحاولات من بعض الباحثين تحت دعوة الالتزام وهي ربط المبدع بالواقع ومحاولة إقناعه بالتخلي عن المستقبل وهي في حقيقتها إلزام المبدع بالقيم الحضارية الآنية، من أجل الوقوف على معطيات الفرد الفكرية والسياسية والدينية وغيرها من مجالات حياته المتغيرة، فمسألة الالتزام لازالت تحتاج إلى الكثير من التقصي والسؤال والفهم العميق لقضاياها العديدة من قبل المهتمين من النقاد والدارسين، ولعلها مجال غصب لمعرفة أكثر لحياة الشعوب والأمم.

هوامش وإحالات المقال

- ¹- أبو قاسم جار محمود بن عمر، أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تج: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج: 02، 1998، ص 166.
- ²- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، د.ط، 2003، ص 823.
- ³- ابن منظور، لسان العرب، تج: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، مج: 12، ط: 01، 2003، ص 541-542.
- ⁴- ينظر: ناصر عبد الرحمان الخنين، الالتزام الإسلامي في الشعر، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط: 01، 2003، ص 25.
- ⁵- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية، ط: 05، 1994، ص 12.
- ⁶- بدوي بطانة، قضايا النقد الأدبي-الإطار والمضمون-، دار المريخ، د.ط، 1984، ص 15.
- ⁷- نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المذاهب الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1984، ص 345.
- ⁸- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر - قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، ص 374.
- ⁹- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، ص 25.
- ¹⁰- رجاء عيد، الالتزام في النقد الأدبي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، 1988، ص 295.
- ¹¹- إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط: 02، 2002، ص 160.
- ¹²- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص 375.
- ¹³- شوقي ضيف، البحث الأدبي، -طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره-، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، د.ت، ص 13.
- ¹⁴- مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، دار القلم، بيروت، ط: 01، 1974، ص 79.
- ¹⁵- محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر، دار الشروق، د.ط، 1994، ص 200.
- ¹⁶- الخوارزمي، رسائل الخوارزمي، مطبعة الجوانب، القسطنطينية، ط: 01، د.ت، ص 10.
- ¹⁷- رجاء عيد، الالتزام في النقد الأدبي، ص 315.
- ¹⁸- أحمد طالب، الالتزام في القصة الجزائرية القصيرة المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت، ص 09.
- ¹⁹- توفيق الحكيم، فن الأدب، مكتبة الآداب، د.ط، د.ت، ص 288.
- ²⁰- المرجع نفسه، ص 289.
- ²¹- جان بول سارتر، الأدب الملتزم، تر: جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، بيروت، ط: 02، 1967، ص 44.
- ²²- فقيه يونس، ملامح الالتزام القومي في شعر نزار قباني، دار بركات للنشر والتوزيع، لبنان، ط: 01، 1998، ص 213.
- ²³- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ص 32.
- ²⁴- ينظر: وليد قصاب، الالتزام الأدبي في الفكر الإسلامي، مجلة أفاق الثقافة والتراث، دبي، 1998، ص 93.
- ²⁵- ينظر: فليب تودي هوراردريد، أقدم لك سارتر، تر: إمام عبد الفتاح، المجلس الأعلى للثقافة، د.ط، 2002، ص 147.

- ²⁶-نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المذاهب الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص 329.
- ²⁷-ينظر: عبد اللطيف شرارة، معارك الأدبية قديمة وحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ط01، 1984، ص 295.
- ²⁸-نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المذاهب الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص 341.
- ²⁹-ينظر: حواس بري، شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1994، ص 237.
- ³⁰-محمد مصاييف، دراسات في النقد والأدب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، د.ت، ص 52.
- ³¹-أحمد طالب، الالتزام في القصة الجزائرية القصيرة المعاصرة، ص 10.
- ³²-نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المذاهب الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص 342.
- ³³-رجاء عيد، الالتزام في النقد الأدبي، ص 8.
- ³⁴-عزيز السيد جاسم، دراسات نقدية في الأدب الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1995، ص 95.
- ³⁵-عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص 381.
- ³⁶-محمد مندور، فن الشعر، دار القلم، القاهرة، المكتبة الثقافية، د.ط، د.ت، ص 76.
- ³⁷-شوقي ضيف، البحث الأدبي، ص 101-102.
- ³⁸-إحسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص 159.
- ³⁹-ينظر: زكي نجيب محمود، مع الشعراء، دار الشروق، بيروت، ط03، 1982، ص 194.
- ⁴⁰-محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار النهضة، القاهرة، د.ط، 1973، ص 481.